

د. زغلول راغب النجار



هذه الآية المقرآنية الكريمة جاءت في أواخر الثلث الثاني من سورة النور، وهي سورة مدنية، وآياتها أربع وستون، وقد سميت

بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الله (تعالى) هو نور السماوات والأرض، وأنه (تعالى) هو الذي يهدي لنوره من يشاء، وأن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من التشريعات الإلهية المضابطة لسلوك المسلم في كل من حياته الخاصة والعامة؛ والحاكمة للعلاقات في داخل الأسرة المسلمة صونا لحرمتها، وتبدأ سورة النور بتأكيد أنها من جوامع سور القرآن الكريم لأن الله (تعالى) فرض فيها علي عباده فرائض ألزمهم بها، وفي مقدمتها تحريم الزنا، وتشريع الحدود المرادعة للواقعين في هذه الجريمة المنكرات، وتبشيعها إلى الناس كافة بقول الحق (تبارك وتعالى): الزاني لا ينكح إلما زانية أو مشركة، والمزانية لا ينكحها إلما زان أو مشرك، وحرّم ذلك علي المؤمنين (النور: 3).

وتنهي السورة الكريمة عن المخوض في أعراض الناس، وتؤكد أن المخائضين في هذا الأمر بغير دليل هم من المفسقين الذين تجدر بهم العقوبات المرادعة، وتحدد العقوبة المناسبة لهم، وتعتبرهم من الخارجين علي دين الله إلما الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (النور: 5).

وتشرع سورة النور للملاعة كوسيلة من وسائل درء الشبهات بين الأزواج؛ وتشير إلي فرية الإفك، وتبريء المظلومين من دنسها، وتغلظ العقوبة للذين افتروها، وتصفه بأنه بهتان عظيم، وتحذر من العودة إلي افتراء مثله أبدا وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى) ليعلظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولولم فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم (النور: 17-20).

وتحذر سورة النور من اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالمعصية والمنكر؛ وتحض السورة الكريمة علي الإنفاق لذي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله؛ وتنهاي عن رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وتغلظ العقوبة علي الوقوع في هذا الجرم بقول الحق (تبارك وتعالى): إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (النور: 23-25)، وتضيف السورة الكريمة الدعوة إلي طهارة المجتمعات الإنسانية مؤكدة حكم الحق (تبارك وتعالى): الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم (النور: 26).

وتنهي سورة النور عن دخول البيوت دون استئذان وسلام علي أهلها، وتضع الضوابط الشرعية لدخول البيوت بصفة عامة، وتأمّر بغض البصر، وحفظ الفرج، وستر العورات، وبالاحتشام في الملابس والمظهر، وتنهاي عن التبرج بزينة، وتضع الضوابط الصحيحة لحجاب المرأة المسلمة، وللزواج، كما تحرم البغاء، واستغلال الجوّاري للكسب المادي الرخيص من وراء هذه الجريمة المهذرة لكرامة الإنسان وذلك بقسرهن عليها، وإكراههن علي ممارستها، وتؤكد السورة الكريمة أن الله (تعالى) أنزل إلي الناس آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلهم وموعظة للمتقين، وتؤكد أن الله (تعالى) هو نور السماوات والأرض، وأنه (تعالى) هو الذي يهدي لنوره من يشاء؛ وتضرب مثلا لذلك، ولله المثل الأعلى، وتدعو سورة النور إلي عتق رقاب الأرقاء؛ وإلي بناء المساجد، وإلي القيام علي عمارتها وتطهيرها، بيوتا لله في الأرض، ونارات للدعوة إلي دين الله الخاتم، يعبد فيها الله (تعالى) وحده، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع؛ ويسبح المؤمنون فيها بحمده صباح مساء، لا يشغلهم عن ذلك شيء من ملهيات الدنيا، ومتعتها، وزخارفها، وذلك طمعا في مرضاة الله، وتجنبيا لسخطه، وتحسبا لأهوال يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، وتبشر السورة الكريمة أهل المساجد بأن الله (تعالى) سوف يجزيهم، أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب (النور: 38).

وفي المقابل تؤكد سورة النور أن الكفار في الآخرة سوف يجدون أعمالهم التي اقترفوها في الدنيا وهم متصورون أنها أعمال عظيمة، وكأنها سراب خادع لا قيمة له، ولما نفع منه؛ وسوف يجدون الله (تعالى) حاضرا يوفيههم حسابهم وهو (تعالى) سريع الحساب، وأما أعمالهم السيئة فسوف يجدونها كظلمات متكاثفة يشبهها الله (تعالى) سبحانه وتعالى، بالظلمات المترابطة فوق قيعان البحار العميقة، والتي يشارك في إحداثها كل من السحاب، والأمواج السطحية، والأمواج الداخلية والتي لم تكتشف إلما في مطلع القرن العشرين، وتعتبر الإشارة إليها في سورة النور سبقا علميا للقرآن الكريم في زمن لم يكن لأحد من البشر إدراك لوجودها.

بل ظلت خافية علي علم الإنسان لمدي ثلاثة عشر قرنا بعد تنزل الوحي بها. والواقف في مثل هذه المظلمات المتكاثفة لا يكاد يري شيئا من حوله ولذلك تقرر الآيات حقيقة كونية واقعة تصفها بقول الحق (تبارك وتعالى):. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور
 السنوات القليلة الماضية مؤكدة أن كل صور الحياة فوق قيعان البحار العميقة. وكذلك بعض الكائنات المليية علي سطح الأرض قد زودها الخالق (سبحانه وتعالى) بوسائل إضاءة ذاتية. حتي ينطبق النص القرآني في آخر هذه الآية الكونية علي الواقع المادي المحسوس. كما ينطبق علي المعني الضمني المقصود.!!!
 وتؤكد سورة النور أن جميع من في السموات والأرض يسبح لله الذي له ملك كل شئ. وإليه المصير: وتستشهد علي طلاقة القدرة الإلهية المبدعة بتكوين السحاب الركامي علي هيئة الجبال. وبإنزال كل من المطر والبرد منه. وبنسبة تكون ظاهرة البرق إلي البرد. لأن في الإشارة إلي هذه الحقائق المتي لم يصل إليها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين: تأكيد علي أن القرآن كلام الله الخالق. وعلي نبوة الرسول المخاتم الذي تلقاه. وتستشهد الآيات علي ذلك أيضا بتقليب الليل والنهار. وبخلق كل دابة من ماء. وبتصنيف تلك الدواب علي أساس من طرائق مشيها. وتؤكد أن الله (تعالى) علي كل شئ قدير. وأنه قد أنزل آيات مبيّنات. وأنه (تعالى) يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم
 وتحذر السورة الكريمة من النفاق والمنافقين. وتفصح عن شيء من دخائل نفوسهم. وما جبلوا عليه من الكذب. والمكر. والخداع. والاحتيال. والحنث في الأيمان. ونقض العهود والمواثيق. تماما كما يفعل المصهاينة المجرمون اليوم. وتقارن بين المواقف الكفرية الكاذبة الخائنة المشينة لهؤلاء المنافقين. والمواقف الإيمانية الصادقة الأمانة الكريمة للمؤمنين. وتأمّر بطاعة الله ورسوله. فإن أعرض المنافقون فما علي الرسول إلا البلاغ المبين.
 وتؤكد سورة النور أن وعد الله قائم للذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله: تبارك وتعالى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم المفسقون (النور: 55).

وتعاود الآيات الكريمة الأمر بإقام الصلاة. وإيتاء الزكاة. وطاعة الرسول (صلي الله عليه وسلم). خاصة في الأمر بالجهاد في سبيل الله. مؤكدة أن الذين كفروا (من أمثال الإسرائيليين المجرمين والأمريكان المتجبرين المعتدين) ليسوا بمعجزين في الأرض. وأن ماوهم جميعا النار وبنس المصير. كما تعاود الأمر بالمزيد من ضوابط السلوك في البيت المسلم. وفي حضرة رسول الله (صلي الله عليه وسلم). خاصة (كنموذج للتعامل مع القيادة الإسلامية في كل زمان ومكان). وتجعل هذا الأدب في التعامل من صفات المؤمنين. وتحذر من مخالفة تلك الأوامر درعا لفتن الدنيا وعذاب الآخرة.
 وتختتم سورة النور بالتأكيد مرة أخرى أن لله ما في السماوات والأرض. وأنه (تعالى) عليم بخلقه. وأنهم جميعا سوف يرجعون إليه فينبتهم بما فعلوا في الحياة الدنيا. ويجازيهم بأعمالهم فيها إن خيرا فخير وإن شرا فشر.
 ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة النور علي صدق ما جاء بها من أحكام وتشريعات ما يلي:
 (1) أن الله تعالى هو نور السماوات والأرض. وأنه تعالى هو الذي يهدي لنوره من يشاء. وأن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور.
 (2) تشبيه أعمال الكافرين التي اقترفوها في الدنيا وهم وهم وأهمون أنها أعمال ذافعة. بالسراب الخداع.
 (3) تشبيه أعمال الكافرين السيئة في الحياة الدنيا بالظلمات المترابكة فوق قيعان المحيطات والبحار العميقة. والمتي يشارك في إحداثها كل من السحاب. والأمواج السطحية. والأمواج الداخلية التي لم تكتشف إلا في مطلع القرن العشرين.
 (4) التأكيد علي أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور. وذلك علي مستوي كل من الحقيقة الواقعة المحسوسة. والمعني الضمني المقصود.

(5) التأكيد علي أن كل ما في السموات والأرض يسبح بحمد الله (تعالى). ويقدمه. ويمجده في عبادة إرادية أو عبادة تسخيرية لا يدركها كثير من الخلق الغافلين.
 (6) الإشارة إلي تكون المسحب الركامية علي هيئة السلاسل الجبلية وذلك بإزجاء السحاب. ثم التآليف بينه. ثم ركمه. وإنزال كل من المطر والبرد منه. وتكون ظاهرتي البرق والبرعد فيه.
 (7) التأكيد علي قدرة الله البالغة في تقليب الليل والنهار.
 (8) خلق كل دابة من ماء.

(9) الإشارة الضمنية الرقيقة إلي إمكانية تصنيف الدواب علي أساس من طريقة مشيتها.
 وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة. قد لا يتسع المجال لها ولذلك فإنني سوف أقصر حديثي هنا علي الآية الأربعة من سورة النور والتي تتحدث عن المظلمات المترابكة فوق قيعان البحار العميقة. وأسباب كونها. وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة. من أقوال المفسرين

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ غَشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الْمُلَّةَ لَهُ

